

البرغوثي في الزنزانة: حرية على حافة الهاوية

حمزة الحاج محمد، فلسطين

"أن تكون الذات الباحثة وموضوع البحث في نفس الآن يعني أن تكون الذي يعذب والذي يبلغ عن التعذيب... أن تكون المشاهد والمشاهد، أن تكون التفاصيل والتجريد معاً."¹

في حرب الإبادة وفي السجن، وعلى حافة الهاوية بين إرادة الأسير الفلسطيني بالبقاء، وصراعه مع الموت بأوجهه المتعددة، يظهر الأسير المناضل الوطني مروان البرغوثي ضعيفاً ومنهكاً، ولكنه يظهر واقفاً، متجلداً، ومستعينا بعزم الإرادة. قد تلتقط كاميرا المستعمر هشاشة جسده، ولكنها، وفي المشهد ذاته، تفضح غري السجان وضعفه، وهو يقف مستنداً على وعود أخرى بالموت الذي يتصالح الفلسطيني معه ويتحالف ضده، بالإصرار على الحياة باعتبارها أداة مقاومة وحيدة في زمن الإبادة التي يتعرض لها الفلسطينيون اليوم.

بعيداً عن أي بقعة ضوء تصارع العتمة، وتحاول التسلل إلى الفضاء المقبوض عليه، والمحكم على الأسرى الفلسطينيين عزلتهم، وبعيداً عن عيون الصحافة بعدساتهم، تحتدم المواجهة بين الحياة والموت، بأذرعها المختلفة، يحدث الكثير: قرار سياسي، انهيار جسدي بسبب الجوع أو المرض أو كليهما، رغبة السجان في إثبات ذاته، انتشار الأوبئة والأمراض في ظل انعدام الدواء وانكشاف الطبيب على جوهره الاستعماري.

في زمن حرب الإبادة الصهيونية، لم يعد طرح القضايا يحتمل تناولها في منأى عن سياسات الموت الاستعمارية، ومحاولات البقاء والصمود للفلسطينيين الذين باتوا يدرأون عنهم الموت بأدوات غير متكافئة. وبالتالي، فلا يمكن تناول تجربة الأسرى الفلسطينيين في السجون الصهيونية بوصفها مجرد سياق سياسي أو إنساني طارئ أو هامشي، بل هي تجربة حقل فلسفي وأخلاقي يضع أسئلة الوجود على المحك: فما معنى أن تُختزل الحياة إلى بقائها البيولوجي العاري؟ وكيف يتحوّل فضاء النفي في معازل السجون إلى مختبر لإعادة إنتاج الحرية؟ وكيف ينكشف خطاب السيطرة الاستعمارية على ضده في أكثر لحظات المستعمر ضعفاً وهشاشة؟

إن حياة الأسير الفلسطيني، لا سيما بعد 7 تشرين الأول 2023، تمثل حالة نموذجية لفهم تطور علاقة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني بالجسد الفلسطيني، ولإدراك الكيفية التي يصبح فيها صراع الجسد وإرادته للبقاء، أداة المقاومة الأقدر على إعادة تعريف الموت والحياة وقيمتها معاً.

في مقاربتة السلطة الانضباطية، يشير ميشيل فوكو إلى أن أنظمة السلطة الحداثيّة تدير الجسد لا بوصفه فرداً حراً، بل جهازاً قابلاً للتطويع.² وإن كانت مقاربتة لتلك السلطة قد جرت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر،

غير أن فوكو أعاد طرح مفهوم السلطة الحيوية (Biopower) التي تمارس دورها الجديد على أنها سلطة منتجة ومنظمة للحياة، وليست قامعة لها بالضرورة.³ وقد كان هذا الطرح سبب التعارض مع جورجيو أغامبين الذي أتى بمصطلح الحياة العارية (Bare life)، حيث التفت فيه إلى تصور الإنسان المستباح (Homo Sacer) الذي يراه منتجاً أساسياً للسياسة الأوروبية منذ روما القديمة وحتى محرقة النازية الحديثة. فهذا الإنسان المستباح، فرداً كان أم جماعة، يُهدَر دمه بسبب إقصائه وحظره عن المجتمع السياسي وسلب كل تعريفاته منه عدا كونه كائناً بيولوجياً معدوم القيمة. وبالتالي، فإن أي منظومة ترى نفسها صاحبة سلطة تنتج خارجها المتمثل بالأناس المستباحين.⁴ وهكذا، يكشف أغامبين عن حقيقة مفادها أن "المعسكر" وما فيه من تعرية وحرمان وإقصاء وقتل، هو المنتج الأبرز للسلطة السياسية الأوروبية.

الأسرى الفلسطينيين بين الجسد المقاوم والعقل المحارب

يأخذ المعنى هنا أبعاداً أكثر خطورة عند الحديث عن السلطة الاستعمارية الصهيونية، وهذا ما يظهر جلياً في مقارنة حال الأسرى الفلسطينيين في السجون "الإسرائيلية"، فالماء، والخبز، والدواء، وفراش النوم، وساعة الشمس، وحيز العيش، وحتى أشكال الاتصال والتواصل -جميعها آخذة في التحول إلى أدوات ضبئية. كان السجن، ولا زال، ينتهج سياسة إدارة هذه الأدوات لتحقيق أعلى مستويات السيطرة، وصولاً إلى تذويب هوية الأسير وصهرها، بلغة الحرّ الشهيد الأسير وليد دقة.⁵ وهي سياسة تقوم على إعادة إنتاج الإنسان المستعمر وفق الصورة التي يريدّها المستعمر، وهذا فعل عنيف وإن تمت ممارسته بأدوات الهيمنة الناعمة أحياناً، إلا أن هذا الفعل يهدف إلى محو هوية الفلسطيني المستعمر وتفكيكها لضمان انصياعه الكامل وتماهيته مع رغبة سجنائه المستعمر، وهي جريمة إبادة سياسية، بحدّها الأدنى، كما يثبت دقة ذلك في **صهر الوعي** (2010)، وهي مرحلة من مراحل إعداد الأرضية لإبادة مادية، كما أثبتت الوقائع (الراهنة) لاحقاً.

لكن ذلك التحكم والعنف الكليّ تجاه الأسرى لم ينتج عنه الخضوع وحده، بل فتح، في المقابل، إمكانية المقاومة لاستعادة الحقوق وحماية المكتسبات عبر الاتكاء على الجسد سلاحاً وحيداً قادراً على استرداد الحقوق، وذلك ما أجادته الحركة الفلسطينية الأسيرة عبر الإضرابات المتكررة عن الطعام والتي كان أولها إضراب سجن الرملة في العام 1969 وأخرها وأطولها إضراب العام 2017، بقيادة الأسير المناضل مروان البرغوثي.⁶ والإضرابات عن الطعام هي التي مكّنت الحركة الأسيرة من مراكمة رزمة من الحقوق الأساسية من طعام ولباس، وفراش وأغطية، وأجهزة اتصال بالعالم الخارجي كالتلفزيون، والراديو، والهاتف العمومي. إن هذا النوع من المقاومة، وإن بدا سلمياً في ظاهره، تجاه الخصوم، لكنه قد يكون عنيفاً على من يمارسه، كما نطق بذلك شواهد كثيرة كان آخرها استشهاد الشيخ خضر عدنان أثناء إضرابه عن الطعام في العام 2023.

إن الشكل السابق من المقاومة لم يكن الشكل الوحيد، فقد كانت هناك أشكال أخرى أكثر عمقاً وأدوم أثراً، أهمّها تجربة التعليم الجامعي، وما عرف بـ "جامعة السجن في هداريم"، التي استحدثها الأسير مروان البرغوثي في العام

2012، وكان الشهيد الأسير وليد دقة واحداً من أهم أساتذتها.⁷ وقد مثلت تلك التجربة أنموذجاً للمقاومة التي عرّفها إدوارد سعيد أنها نهج بديل في قراءة التاريخ، وفي إعادة إنشائه،⁸ وكانت تلك التجربة أيضاً أداة لاستعادة الذات وإعادة تشكيلها في آنٍ معاً. وبالتالي، فقد كانت أداة أكثر سلمية على ممارسيها من الإضراب عن الطعام، لكنها كانت أكثر خطراً على عدوّها منه، ذلك أنها ملّكت المستباحين من الأسرى الفلسطينيين المعرفة والأدوات التي يستطيعون بها تعريف عدوّهم وتأطيره بدل أن يكونوا مواضيع دائمة للتعريف والتأطير والتنميط.

السجن: من الإبادة السياسية إلى الإبادة الجماعية

لا ينفصل تاريخ الحركة الفلسطينية الأسيرة عن بقية جغرافيات الوجود الفلسطيني، وهو تاريخ يبيّن بشكل موازٍ قراءة مسار الحركة الاستعمارية الصهيونية الأيديولوجي والتاريخي، تلك الحركة التي لم تتشكّل إلا على خطاب نفى وإلغاء وإبادة للآخر الفلسطيني والعربي،⁹ فلحظة التأسيس لمنهج الصهيونية الأبرز "دولة إسرائيل"، هي لحظة انتصارهم بـ "حرب الاستقلال"، ولحظة إنتاج النكبة للفلسطينيين، وهي اللحظة الأعنف في تاريخهم. ولم تكن بالطبع، لحظة منقطعة، بل كانت مساراً مستمراً ومتطوراً، أفرز حرب الإبادة الحالية التي لا يمكن قراءتها إلا بكونها ترجمة أكثر جدية لـ "حرب استقلال"هم ونكبتنا المستمرة والمتطورة، لا نكبة أخرى جديدة كما يقول البعض.

على الرغم من محاولة المحكمة العليا "إسرائيلية" في ثمانينيات القرن الماضي النأي بمركز الصهيونية عن خطاب حركة "اخ" العنصري، والداي إلى قتل العرب وطردهم، عبر منعها من الترشّح لانتخابات الكنيست الصهيوني في العام 1988، ثم حظرها بوصفها منظمة إرهابية في العام 1994 بعد مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل التي اقترفها باروخ غولدشتاين (المنتمي إلى حركة كاخ)... عاد إيتمار بن غفير "لمريد المخلص" للراب مائير كهانا، مؤسس حركة كاخ، (حيث أقر باحتفاظه بصورة غولدشتاين في بيته تخليداً لذكراه).. ليصبح وزيراً للأمن الداخلي (ثم للأمن القومي)، وليكرّس المنطق ذاته بعد عقود، وبعد حملة انتخابية تصدّرتها شعارات "لموت للأسرى الفلسطينيين" وممارسات التضيق عليهم ومصادرة حقوقهم داخل السجون. لقد أصبح موت الأسير الفلسطيني وعداً انتخابياً ومطلباً سياسياً مشروعاً، وهذا تحول لا يعبر عن كفاءة سياسية لحظية، بل عن تجلٍّ آخر للبعد الفاشي العنيف، الراسخ داخل بنية خطاب الصهيونية.

بعيد اندلاع أحداث 7 تشرين الأول 2023، وإعلان حرب الإبادة الصهيونية على الفلسطينيين بشكل عام وعلى قطاع غزة بشكل خاص، استغلّ بن غفير وسجانو مصلحة السجون الصهيونية تلك الأحداث لتمرير مخطط المساس بحياة الأسرى الفلسطينيين وتقويض منجزات الحركة الأسيرة. فمع قطع الماء والكهرباء ومصادرة أجهزة التلفاز والراديو وكل ما يمتلكه الأسرى من أشياء مادية ورمزية، تحوّلت حياة الأسرى الفلسطينيين منذ ذلك الحين إلى مشاهد متتالية من كابوس أسود تتصدّر بطولته أشباح الموت، إذ تحوّلت غرف الأسر إلى زنازين من إسمنت رمادي وحديد بارد لا شيء فيها سوى ما علق على جدرانها من دماء الأسرى أو وعود قتلهم.

كانت مصادرة مقتنيات الأسرى مجرّد ردة فعل أولية، تبتعتها عمليات تجويع جماعي وإيقاف للعلاج الطبي واعتداءات ضرب يومية ومنظمة طالّت المئات من الأسرى على امتداد السجون، وأدّت إلى استشهاد العديد منهم وإصابة العشرات يومياً. وقد كان استشهاد الأسير المفكّر وليد دقة من أبرز نتائج هذه الاعتداءات،¹⁰ حسب الشهادة التي قدّمها عميد الأسرى المحرر نائل البرغوثي، والذي كشف عن شكل الاعتداءات التي تعرّض لها دقة قبيل استشهادها. كما قد نالت سجون عوفر والنقب ومجدو أكثر تلك الاعتداءات دموية وبشاعة. ففي سجن عوفر، حيث كان يعتقل الأسير مروان البرغوثي ويحتجز أكثر من ألف من الأسرى الفلسطينيين من الإداريين والموقوفين، يتولّى مسؤولية السجن ضابط ذو توجهات يمينية، كما كان مسؤول سجن النقب من أصول درزية، وقد لعبا الدور البارز في تجويع الأسرى والمعتقلين وتهديد حياتهم، وقد كان هذا الدافع لدعوات حقوقية عالمية لمقاضاتهم ومعاقبتهم.¹¹ إن السجان ذاته، وبعد أسبوعين من بداية الحرب، قام بالاعتداء الجسدي المباشر على الأسير مروان البرغوثي، فقد كادت أن تخلع كتفه على إثر الاعتداء. كان ذلك الاعتداء مقدمة لما سيتعرض له أبو القسام ورفاقه من قادة الحركة الأسيرة والذين تم اقتيادهم إلى زنازين العزل الانفرادي.

البرغوثي في العزل: شهادة جديدة

لم تلتقط كاميرا بن غفير أثناء اقتحامه زنانة الأسير مروان البرغوثي، سوى الاستعراض الأهوج لفارق السيطرة الاستعمارية -وفارق القيمة الأخلاقية أيضاً.¹² كانت "واجهة" بين الأسير المعزول الأعزل من جهة والوزير المثقل بغرور القوة وبطش السلاح من جهة أخرى. وبالتأكيد كانت رسالة تحمل تهديداً حقيقياً ومباشراً لحياة البرغوثي ومن معه من أسرى قابعين في زنازين العزل الانفرادي، فبن غفير هدّد من أسماهم "تلة الأطفال والنساء" بالمحو، وهو تعريف يكاد يجمع العالم اليوم على جدارة استحقاق الصهيونية وقادتها له. إن ذلك الخطاب وما فيه من توصيف وتهديد يمثّل شاهداً آخر على آلية "لخداع الذاتي" التي طالما أتقنتها الصهيونية في خطابها للعالم،¹³ وذلك بهدف ادّعاء الحق وتأطير وتحقير أصحابه الأصليين كخطوة تسبق محوهم (بلغة بن غفير نفسه).

وفي سلسلة تسجيلات صوتية، يكشف الأسير المحرر ثابت مرداوي ما لا تظهره كاميرا السجانين من اعتداءات متكررة تعرض لها البرغوثي، ورفاقه في الأسر، كما يسلّط الضوء على كيفية مواجهتهم كل تلك الظروف، والقدرة على التأقلم والصمود في شروط انتفاء الحياة. والمرداوي كان قد تحرر ضمن الدفعة الأولى من صفقة كانون الثاني 2024 حيث كشف عن مجموعة محدّدة من الأسرى من قادة الفصائل كانت تحت دائرة الاستهداف، بالقول: "كانت هناك مجموعة من الواضح أنها مستهدفة، ويتّم التعامل معها وفق قرارات المستوى السياسي، هذه المجموعة فيها مروان البرغوثي وفيها سلامة القطاوي وفيها عمار مرضي وفيها أنا، ثابت مرداوي. لما أحضره [مروان] على عزل مجدو ضربوه بشكل همجي غير مسبوق، كانوا يهجموا علينا ونحن نيام في الليل. في إحدى المرات هجموا علينا ونحن نيام، كل الزنازين سمعت صوت ارتطام رأس أبو القسام بالأرض أثناء الهجوم والاعتداء."¹⁴

لقد دفعت وتيرة الاعتداءات وتوقيتها المرداوي للافتراض أن الاعتداءات لم تكن عفوية "قد كانت تتم بشكل يوجي أنها تهدف إلى إرضاء شخص أو جهة معينة، وكان مروان في دائرة الاستهداف الأولى ضمن المعزولين وكان الاعتداء عليه ممنهجاً بشكل واضح. كانوا يخصصون لنا وجبتي ضرب شهرياً، لكن مروان كان يحظى بحصة أكبر، وكان أكثر واحد يُضرب ضمن المجموعة المستهدفة. في إحدى المرات تعرّض إلى ضرب شديد وبوحشية عالية، وهو كبير بالسن وبنيته الجسدية ضعيفة، لكنهم ضربوه وخلعوا كتفه وضربوه على عينه، وكان لذلك أصداء في الخارج، على ما يبدو، لأنهم قاموا لاحقاً بسحبته بالقوة إلى غرفة العبادة وصوّروه ليثبتوا أنه على قيد الحياة. "أكد هذه الواقعة أسرى محررون آخرون، التقوا بأسير عائد من البوسطة، كان قد التقى البرغوثي في "لمبار" مع العلم أنهم لا يتيحون عادة لقاءً بين الأسرى المعزولين، وتحدث عن أن البرغوثي كان بحالة صحية صعبة، إلا أنه ولمفارقة كان بحالة معنوية جيدة، وكان يتمتع بصلاية كبيرة إذ كان يدعو الأسرى في "لمبار" إلى التحمل والصبر قائلاً: "نا كبير بالسن وبنضرب كل يوم ومش خايف، إنتو ما تخافوا" وقام بإلقاء محاضرة عن تاريخ العنف بالعبرية من وراء باب زنزانتة.

أما فيما يتعلق بآلية تعاطي الأسرى وصمودهم داخل العزل، أشار المرداوي إلى انشغال البرغوثي بالتفكير خارج الصندوق، في محاولة للتوصل لرأي يساهم في الخروج من المأزق العام وطرح أفكار خلاقة للنقاش، مثل: "رح فكرة دولة بأيّ ثمن، وذلك تأسيساً على تقديره، البرغوثي، لحجم وفداحة الكارثة والثمن الذي يدفعه الشعب الفلسطيني، وأن الوصول لأيّ اتفاق سياسي سيضع حدّاً لحرب الإبادة وسيجنّب الفلسطينيين مزيداً من الكوارث. "كما أشار المرداوي أيضاً إلى طرح البرغوثي "كرة تشكيل طاقم وطني عابر للتنظيمات، من أصحاب التجربة الوطنية والخبرة السياسية في محاولة للتفكير بحلول للمأزق السياسي الذي وصلت إليه القضية الفلسطينية. "وعلى الصعيد الشخصي، كشف المرداوي عن أن البرغوثي كان يحاول الحفاظ على جسده وعقله بكل طريقة، لذلك كان يستغل واقع كونه وحيداً في الزنزانة للقيام ببعض التمارين الرياضية، على الرغم من ضيق الزنزانة وقذارتها، وعلى الرغم من ضعف جسده نتيجة تكرار الاعتداءات وشحّ الطعام. كما تحدث عن انشغال الأسرى الدائم بالنقاشات الفكرية والنشاطات الذهنية، وكشف أيضاً أنه "وحتى فترة لقائه بالبرغوثي، كان قد أكمل حفظ نصف القرآن الكريم. "ربما يجسّد الأسير الفلسطيني مفهوم "الحياة العارية" الإنسان المستباح "كما عرف ذلك أغامبين، لكن الفلسطيني المصان بعافية روحه، لم يعدم القدرة على إنتاج المعنى ومشاغلة العدم. فحين يحرم الأسير من الطعام والدفاء والدواء، ويترك في مواجهة العزلة والموت، فإنه لا يستسلم لهذا العري بل يحوِّله إلى موقف فلسفي: يتصالح مع احتمالية الموت، لكنه يخلق من هذا التصالح معنى جديداً للحياة، فتصبح الحياة العارية للفلسطيني المستباح لا مجرد دعوة إلى قتله فقط، بل تصبح دعوات الموت للفلسطيني، شاهداً على بقاءه وفرصة لإثبات أن الرغبة بالحياة في وجه الإبادة أداة مقاومة أيضاً

الإحالات

- [1] وليد دقة، صهر الوعي أو إعادة تعريف التعذيب (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 2010)، 19.
- [2] ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ترجمة علي مقلد (الجبيل: دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع، 2022)، 188.
- [3] ميشيل فوكو، إرادة المعرفة، ترجمة نجيب العوفي (الدار البيضاء: دار توبقال، 1984)، 105.
- [4] أماني أبو رحمة، "جورجيو أغامبين: الإنسان المستباح والحياة العارية"، عمان نت، 5 حزيران 2016، شوهد في 23 آب 2025.
<https://tinyurl.com/y3vbxglj>
- [5] دقة، مصدر سبق ذكره، 26.
- [6] "إضرابات كبيرة عن الطعام يقوم بها أسرى فلسطينيون في السجون الإسرائيلية، وكالة وفا، 17 نيسان 2017، شوهد في 22 آب 2025.
https://english.wafa.ps/page.aspx?id=hwx7vea75436894533ahwx7ve&utm_
- [7] قسم الحاج، "جامعة السجن في هداريم: استنلاف الموحش وفقه البقاء"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 135 (2023): 107-130.
- [8] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: دار الآداب، 1997)، 274.
- [9] للمزيد حول للعنف البنيوي داخل الخطاب الصهيوني، انظر: عبد الوهاب المسيري، تاريخ الفكر الصهيوني جذوره ومساره وأزمته، ط4 (القاهرة: دار الشروق، 2014).
- [10] نائل البرغوثي، "سيرة الرجل الذي عاش أطول من سجنائه"، جسر بودكاست، 2025، شوهد في 28 آب 2025.
https://www.youtube.com/watch?v=qFcE6UWljOY_
- [11] "فرض عقوبات على الوزير الإسرائيلي بن غفير ومسؤولين آخرين بسبب الانتهاكات الجسيمة ضد الأسرى الفلسطينيين"، منظمة الديمقراطية الآن للعالم العربي، 18 DAWN حزيران 2025، شوهد في 25 آب 2025.
https://dawnmena.org/sanction-israeli-minister-ben-gvir-and-other-officials-for-severe-abuses-against-palestinian-prisoners/?utm_
- [12] وزير الأمن القومي الإسرائيلي إيتمار بن غفير نشر "فيديو يظهره يقف داخل زنانة النائب مروان البرغوثي"، على حسابه على منصة X، 15 آب 2025.
- [13] أشرف عثمان، "الاشتراك كآلية استعمارية: الاستعمار الصهيوني نموذجاً"، في مفهومة فلسطين الحديثة: نماذج من المعرفة التحررية، تحرير وإشراف عبد الرحيم الشيخ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2021)، 83-118.
- [14] تسجيل صوتي للأسير المحرر ثابت المرادوي، 7 تموز 2025.